محاضرة الخطابة (أنواعها وأشهر الخطباء)

تمهيد :

من أكثر الفنون النثرية ممارسة منذ الجاهلية عرفها العرب بطبيعتهم وحاجتهم إليها في مختلف المواقف وعديد المناسبات وقد يكون عرفها بعض الأشراف من زياراتهم المتكررة للغساسنة والمناذرة وهؤلاء مارسوها من خلال تأثرهم بحضارة الفرس والروم .

أولا : الخطابة لغة و اصطلاحا

لغة :اشتقت كلمة الخطابة من الجذر اللغوي (خ ط ب) وهي في معاجم اللغة وقواميسها تحمل معاني متعددة يمكن حصر بعضها في ما تقول مادة أهم المصادر اللغوية فيما يلي :

جاء في لسان العرب في معناها أنه «قيل هو سبب الأمر، يقال : ما خطبك؟ أي ما أمرك»[1] وذكر الزمخشري في مصنفه اللغوي ان الخطابة تتمثل دلالتها في قولنا «خاطبه أحسن الخطاب وهو المواجهة بالكلام» وقال كذلك «رجل خطّاب، كثير التصرف في الخطبة والمخاطبة: مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان» [2] .

وأورد الفيروز أبادي أن «الخطابة: الكلام المنثور المسجع ونحوه، رجل خطيب: حسن الخطبة» وأوجز ما يحمل من تعريف الخطبة في مدلول ما نحن بصدد التطرق إليه ما ورد في معجم محيط المحيط من أن الخطبة «ما يتكلم به الخطيب على جماعة مهمة دينية أو دنيوية، والخطابة هي الكلام المنثور المسجع» .

أما اصطلاحا فيمكن الاستئناس إلى بعض المعاني التي جمعها التعريف القائل « أن الخطبة فن من فنون الأدب النثري مختص بكلام يلقى إلقاءً أمام جمهور مستمع وتهدف إلى

(1).ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (خ ط ب)

(2).الزمخشري ، أساس البلاغة ص.

توضيح أمر أو قضية هما مثار جدل لأفهام هذا الجمهور وتوجيهه واستمالته بإثارة عواطفه لاتخاذ موقف ما، هو الموقف الذي يرمي إليه الخطيب»[1]

ثانيا : قيمة الخطبة في الجاهلية و موضوعاتها :

لقد وضع العربي لحياته قواعد وضوابط وأحكام وأعراف كان قد أرخ لها الشعر وعرّف بفحواها وذكر في غير ما قول أن القبيلة كانت بحاجة إلى خطيب حكيم يبارك أعمالها ويشير عليها في مواضع الرأي والمشورة و يحملها في مواضع الحرب و العداء على البسالة والقتال وفي مواضع الحلم والمسالمة يكون لسانها الدال على ذلك يقول عامر المحاربي في مديح قومه:

وهم يدعمون القول في كل موضع بكل خطيب يترك القوم كظّما

يقول فلا يعيا الكلام خطيبنا إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما

هكذا فكل من أنكر وجود الخطابة في الجاهلية يكون قد أخطأ حكمه فيها وإذا ما قلبنا صفحات كتب تاريخ الأدب في عصره الجاهلي نجد أنها كانت إحدى أهم الفنون النثرية التي تعاطاها العرب آنذاك بعد الشعر طبعا.

موضوعاتها:

انطلاقا من تعاملنا مع هذا المورث الهام من المنتوج الخطابي في العصر الجاهلي يمكن تقسيمه حسب موضوعاته إلى «المفاخرة أو المنافرة أو لصد عاد أو لحض على الحرب او ما إلى ذلك من أمور الحياة القبلية كما كانت للإرشاد والتزهيد والصدوف عن أباطيل الدنيا»[2]، أي إلى جملة من الأنواع نذكر منها:

1/ الخطبة السياسية:

وهي من أكثر الخطابة ممارسة من الجاهليين وهذا لأنها تحمل سياسة القبائل وترسم أهدافها في الحرب والسلم فكلما عمدوا إلى حرب إلا وقدموا لأحداثها بخطيبهم يرفع من همة

(1).انطوان القوال ، فن الخطابة ، ص 199 .

(2). حنا الفاخوري: الجديد في الأدب العربي، ج5، منشورات مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ط5، 1962، ص172.

واقتناع المحاربين بأهمية هذا العمل وقداسته فيشعل فيهم مكامن الغيرة والولاء للقبيلة وحرماتها وما دامت أيام العرب لا تحصى وحروبها في تلك الأيام لا تعد فمن الطبيعي أن الخطابة طبل يقرع ويرفع صوته مع عقد لواء كل حرب وخصومة ومن دلائل ذلك ما اعترف به أبو زبيد الطائي يقول:

وخطيب إذا تمعرت الأوجه يوما في مأقط مشهود1

وان كان في موضع السلم فالخطابة أفضل الوسائل أيضا تحمل الناس على التسامح وترفع فيهم مستوى الإحساس بالمسؤولية والميل إلى السلم فكم من منافرات كادت أقرب من أن تؤدي إلى الحرب فكان تدخل الحكماء فيها وتحركوا للصلح وقطع الطريق أمام مساعي الشيطان كما حدث في منافرة كانت بين قريش وخزاعة فخطب فيهم هاشم بن عبد مناف فأذعنوا لقوله: "يا بني قصي أنتم كغصني شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه والسيف لا يصان إلا بغمده ورامي العشيرة يصيبه سهمه ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغي، أيها الناس الحلم شرف والصبر ظفر والمعروف كنز والجود سؤدد والجهل سفه والأيام دول والدهر غير والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء وأكرموا الجليس يعمر ناديكم وحاموا الخليط يرغب في جواركم وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف وتهدم المجد وإن نهنهة (زجر) الجاهل أهون من جريرته ورأس العشيرة يحمل أثقالها ومقام الحليم عظة لمن انتفع به. فقالت قريش: رضينا بك أبا نضلة. وهي كنيته".

ومن بين مظاهر التعامل السياسي الممارس في الجاهلية أيضا يتمثل في علاقاتهم مع حلفائهم الملوك وأمراء من حكام الفرس والروم أو من والاهم من الغساسنة والمناذرة فكان من طبيعة التواصل أن يكون للقوم لسانا يمثلهم في بسط مطلبهم في تلك المواضع ومن أمثلة ذلك هذا النص الذي يقول صاحبه الملبب بن عوف:

"أيها الملك، إن الدنيا تجود التسلب، وتعطى لتأخذ، وتجمع لتشتت، وتحلى لتمر، وتزرع الأحزان في القلوب، بما تفجأ به من استرداد الموهوب، وكل مصيبة تخطأتك جلل[1]، ما لم تدن الأجل، وتقطع الأمل، وإن حادث ألم بك؛ فاستبد [2] بأقلك، وصفح عن أكثرك، لمن أجل النعم عليك، وقد تناهت إليك أنباء من رزئ فصبر، وأصيب فاغتفر؛ إذ كان شوًى[3] فيما يرتقب ويحذر؛ فاستشعر اليأس مما فات، إذ كان ارتجاعه ممتنعًا، ومرامه مستصعبًا؛ فلشيء ما ضربت الأسى، وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء."

والمُراجع لكتب السيرة النبوية يقع على كثير من هذه الوفود التي كانت تفعل معه ما كان يفعلونه مع ملوك الغساسنة والمناذرة فيقف خطيب الوفد بين يدي الرسول متحدثا فكانت سنّة شاعت في الجاهلية ومارسها الرسول مع الوفود خاصة منذ السنة الثامنة للنبوة ويؤرخ ذلك قول اوس بن حجر:

أم من يكون خطيب القوم إذا حلفوا لدى الملوك ذوي أيد وأفضال

2/خطبة الوعظ والإرشاد:

من أشهر الشخصيات الداعية لفعل الخير ومحبة السلام في الجاهلية خطيبها وشاعرها قس بن ساعدة الإيادي الذي كان يتحمل مشاق السفر إلى مكة في موسم الحجيج وكان يستوي على جمله الأحمر ويتكئ على عصاه ويخطب في الناس مذكرا بقيمة فضائل الصفات ومحييا في النفس إنسانيتها وداعيا إلى الخير قبل الموت وها هو يقول:

لما قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال: يا معشر وفد إياد، ما فعل قس بن ساعدة الإيادي؟ قالوا :هلك يا رسول الله. قال: لقد شهدته يوما بسوق عكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام معجب مؤنق لا أجدني أحفظه. فقام إليه أعرابي من أقاصي القوم فقال:

(1).الجلل: العظيم والحقير وهو هنا بالمعنى الثاني.

(2).البدة بالضم: النصيب: النصيب، واستبد به: جعله نصيبه.

(3).الشوى: الهين اليسير ورذال المال.

"أنا أحفظه يا رسول الله. قال: فسر النبي ﷺ بذلك. قال: فكان بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: يا معشر الناس اجتمعوا، فكل من فات فات، وكل شئ آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج، نجوم تزهر، وجبال مرساة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا. أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه، إن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا:.

ويحفظ رواة تاريخ الأدب أسماء عديدة لخطباء نصحوا أقوامهم وعشائرهم بحسن الأخلاق والتزام مبادئ السلام والصدق والصفاء على غرار ما كان من عامر بن الظرب وأكثم بن صيفي وقس بن ساعدة الإيادي وغيرهم

3/مناسبات خاصة:

كما كان للخطب في الجاهلية أيضا مناسبات خاصة تستوجب قول الحكيم فيها ما يناسب المقام كمثل:

أ/ الزواج: كان من عادة العرب الجاهليين إذا ما جلسوا في مجلس خطبة أو زواج إلا وتقدم الحكيم صدر المجلس واسمع حضوره بعضا من الكلمات ويذكر الجاحظ في البيان والتبيين انه من عادة الجاهليين وخاصة في زواج أشرافهم وأبنائهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته يخطب باسمه الفتاة التي يريد الاقتران بها "ومن عادة العرب في هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقتصر المجيب" ومن أشهر تلك المجالس مجلس زواج الرسول إذ وقف عمه أبو طالب خاطبا: "«الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد (معدنه) وعنصر مضر (أصله) وجعلنا حضنة بيته وسوَّاس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا، فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله كذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم وما أحببتم من الصداق فعلي"

فلما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل ابن عمّ خديجة فقال: "الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت فنحن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم؛ وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا عليّ معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على كذا".

4/خطبة إكرام الحجيج:

ومن أكثر المواضيع رسوخا في كتب التاريخ الأدبي حول الخطابة في الجاهلية ما كان يمارسه في كل موسم وقبل بداية الاستعداد لاستقبال ضيوف قريش من الحجيج القادمين من قبائل العرب قاطبة كانت خطبة هاشم بن عبد مناف فقد "كان يقومُ أولَ نَهارِ اليومِ الأولِ مِن ذي الحِجَّةِ فَيُسْنِدُ ظهرَه إلى الكعبةِ مِن تِلْقَاءِ بَابِها، فَيَخْطُبُ قُريشًا، فيقولُ: يا معشرَ قريشٍ، أنتم سادةُ العَرَبِ، أَحْسَنُها وُجُوهًا، وَأَعْظَمُها أحلامًا، وأَوْسَطُها أنسابًا، وأَقْرَبُها أرحامًا.

يا معشرَ قريشٍ، أنتم جِيرانُ بيتِ اللهِ، أكرمَكم بِوِلايَتِهِ، وَخَصَّكم بِجِوَارِهِ دونِ بني إسماعيلَ، وحَفِظَ منكم أحسنَ ما حَفِظَ جارٌ مِن جارِهِ، فَأَكْرِمُوا ضَيْفَهُ، وُزُوَّارَ بَيْتِهِ؛ فإنَّهم يأتونَكم شُعْثًا غُبْرًا مِن كلِّ بَلَدٍ، فَوَرَبِّ هذه البُنِيَّةِ لو كان لي مالٌ يَحْمِلُ ذلك لَكَفَيْتُكُمُوه.

ألا وإنِّي مُخْرِجٌ مِن طَيِّبِ مالي وحلالِه ما لم يُقْطَعْ فيه رَحِمٌ، ولم يُؤْخَذْ بِظُلْمٍ، ولم يَدْخُلْ فيه حَرَامٌ، فَوَاضِعُهُ فَمَنْ شاءَ منكم أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ ذلك فَعَلَ. وأَسْأَلُكم بِحُرْمَةِ هذا البيتِ أَلاَّ يُخْرِجَ رجلٌ منكم مِن مالِه لِكِرَامَةِ زُوَارِ بيتِ اللهِ ومَعُونَتِهم إلاَّ طَيِّبًا لم يُؤْخَذْ ظُلْمًا، ولم يُقْطَعْ فيه رَحِمٌ، ولم يُغْتَصَبْ".

خصائص الخطابة في الجاهلية:

كانت الخطابة الجاهلية « خطابة شعب بدائي يحتفل شديد الاحتفال بالمظاهر والحركات والنبرات الصوتية فهم يعمدون إلى ألوان من هدل الشفاه والتقعير والتمطيط والجهورة والتفخيم

في الصوت ويعتمدون السجع اعتمادا وهم يوشون خطبهم بضروب من التنميق والتحبير قصير التأثير ... وكل ما نستطيع أن نقوله ولاسيما فيما يتعلق بخطابة البادية أنها رصف ألفاظ شديدة الإيقاع تخاطب الشعور أكثر مما تخاطب العقل وتحاول الإقناع عن طريق التأثير العاطفي الترهيبي أو الترغيبي وهذا ما نسميه سيطرة عاطفية لا إقناعا»[1]،

ويرى الجاحظ في كتابه البيان والتبيين أن الخطابة في الجاهلية ازدهرت على نحو ما رأيناه من تعدد في الموضوعات وتنوع في الغايات والأهداف ما يجعل مادتها تتفاعل مع المناسبة روحا وشكلا فقد تقوى وتشتد كما يكمن أن تكون سلسلة ونغمتها ترغب في بقاء سماعها وقد تطول في مواضع الإطالة وان تطلب المقام الاختصار كانت ما قل ودل يقول الجاحظ:" اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ومنها القصار ولكل ذلك مكان يليق به وموضع تحسن فيه ومن الطوال ما يكون مستويا في الجودة ومتشاكلا في استواء الصنعة ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد ... ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع " «وكانت خطابة القرشيين في مجالسهم حافلة بالدقة والإيجاز فيما كان الأعراب يسترسلون في خطبهم استرسال إطنابيا تلعب فيه المادة اللفظية أعظم دور»[2]،

وبهذا فالخطابة في الجاهلية تمثل إحدى مظاهر التعامل الحياتي وبذلك، كانت مهمتها النصح والإرشاد والتفاخر وكذلك المنافرة والدعوة إلى حالة السلم ومحاولة حقن الدماء حيث كانت تعقد في الأسواق والمحافل والوفود على الملوك والأمراء، وإن لم تحظ بالاهتمام كما حدث للشعر، فكان من الواجب التأكيد على تنوع وتعدد مظاهر التعامل معها وعلى حضورها اللافت في حياة العرب الجاهليين والجاحظ يثبت في كتابه البيان أنهم كانوا يكثرون منها وإن قبيلة من القبائل أو عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب ويسوق في ذلك قائمة طويلة بأسماء هؤلاء وأقوالهم في بعض من تلك المواضع.

(1). حنا الفاخوري: الجديد في الأدب العربي، ج5، ص.ص173 . 174.
(2). المرجع نفسه، ص173.

وللخطابة عندهم مقام رفيع طالما أشاد به الشعراء « وأن تقدير العرب للخطباء مرتبط شديد الارتباط بنظامهم السياسي المبني على الحرية ونوع من مجلس الشورى ... فكان الخطيب حينئذ وكيل جميع قبيلته يخطب باسمها في المراسم والوفود المفاخرة والمشاجرة والدفاع عن حقوق قومه ... وعند أهل المدن الحجازية في أواخر القرن السادس للمسيح نوع آخر للخطابة جار في أمور الدين والأخلاق والزهد»[1]،

أما أشهر خطباء الجاهلية فقد اشتهر في مكة عتبة بن أبي ربيعة وقيل عنه أنطق الناس وأصولهم لسانا إضافة إلى سهيل بن عمرو الأعلم ونفيل بن عبد العزى الذي كان يقصده المتخاصمون ويرتضون حكمه مهما كان منه ومن أشهر خطباء المدينة قيس بن الشماس وسعد بن الربيع ومن أشهر خطباء البادية أبو عمار الطائي وهاني بن قبيصة خطيب شيان وزهير بن جناب خطيب كلب وقضاعة وأشهر القبائل خطابة تميم ومن خطبائها ضمرة بن ضمرة وأكثم بن صيفي وعمرو بن الأهتم المنقري ولبيد بن ربيعة والحارث بن عباد البكري

1. قس بن ساعدة الايادي ت نحو 600م

هو أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها وقاضيها في عصره كثيرا ما كان يوافي سوق عكاظ ويخطب في الملا ترغيبا لهم عن الوثنية وتخويفا من غضب الله ونقمته وقد مال عن الدنيا وزخرفها وعاش على الكفاف يعظ الناس ويعبد الله توفي بعد ان عمر طويلا

وهو أول من صعد على شرف وخطب عليه وأول من قال في كلامه أما بعد وأول من اتكأ في خطبته على سيف أو عصا وأول من كتب من فلان إلى فلان وأول من أقر بالبعث عن غير علم وأول من قال البينة على من ادعى واليمين على من أنكر وهكذا نسبوا له كثير مما مارسه العرب ويظهر ما فيه من مبالغة.

(1). حنا الفاخوري: الجديد في الأدب العربي، ج5، ص172.

أسلوبه بعيد عن الصنعة كثير السجع القصير الفواصل يعمد فيه قس إلى ضرب الأمثال وإرسال الحكم ومن أشهر خطبه ما قالها في سوق عكاظ وتداولها الرواة.

2. أكثم بن صيفي توفي 630م

هو أكثم بن صيفي بن رباح بن الحارث التميمي أشهر حكماء العرب في الجاهلية وأشهر خطبائهم وحكامهم كان رجل بر ونزاهة فرغب العرب في التقاضي إليه ولم يردوا له حكما وقد اشتهر بحكمته حتى ضرب بها المثل ومما يروى أن النعمان بن المنذر سمع من كسرى ملك الفرس كلاما في العرب أغضبه فأحب أن يريه ذكاءهم وفضلهم فأرسل إليه رهطا من وجوههم وحكمائهم وفيهم أكثم بن صيفي فألقى خطبة مشهورة كلها حكم بارعة وأمثال رائعة منها

إن أفضل الأشياء أعاليها وأعلى الرجال ملوكهم وأفضل الملوك أعمها نفعا ... وإصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي ... شر البلاد بلاد لا أمير بها وشر الملوك من خافه البريء

أما أسلوبه فيتخذ من العقل وسيلة للتأثير فيتجنب المغالاة ويعمد إلى الحكم الرفيعة فيصوغها في قالب موجز ويرسلها في اتئاد ورصانة على غير وحدة تأليفية.